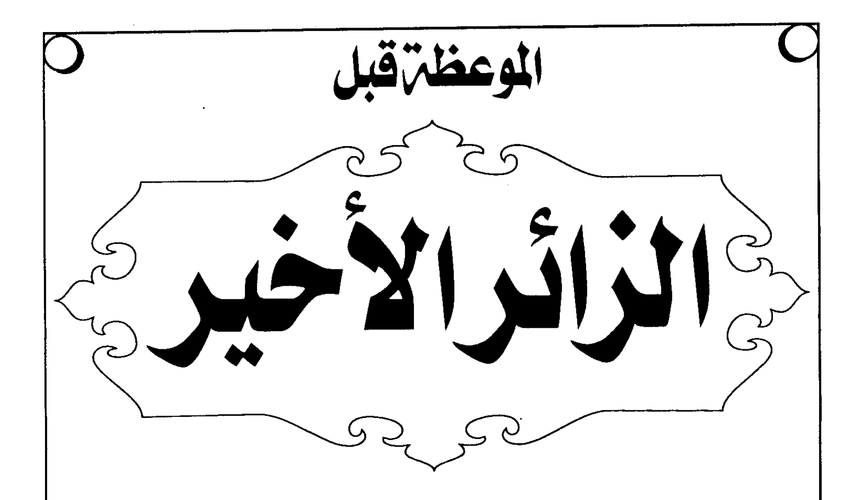


الموعظة قبل

الزائر الأخير

أبو عبد الرحمن المصري

السيد بن أحمد أبو سيف

الناشر
مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢


مطابع
المنصورة ت / ٢٢٣٢٨٦٧

بسم الله الرحمن الرحيم



إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مضل له، ومن يضلل؛ فلن تجد له وليًا مرشدًا.

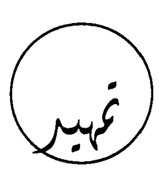
إخواني من المذنبين، وأقول إخواني لأنني لا أتعداهم، فأنا من بني آدم، وقد أخبر النبي ﷺ أن كل بني آدم خطاء، فلهذا أقول: إخواني من المذنبين والعصاة، يا من غرتكم الحياة كما غرتني، وأغواكم الشيطان كما أغواني، يا من تركتم درب المتقين، وسلكتم دروب التائهين، أما آن لنا أن نتوب إلى الله ـ عز وجل ـ وأن نتقيه، أما آن لنا أن نكون من الصالحين، ألم يأن لنا أن تخشع قلوبنا إلى ذكر الله...

قد يتوهم البعض ـ حين يقرأ هذا المُؤَلَّف ـ ويعتقد أن صاحب هذه الكلمات بلا ذنب، أو أقرب للتقوى من غيره، ولكني أقول الحق، لقد كتبت هذه الكلمات لأنتفع بها أولاً، ثم قد ينتفع بها القارئ من بعدي، فما كتبت هذه السطور إلا لأقف أمام نفسي، وأعلمها أن الدنيا حقيرة، وأنها لا تساوي شيئًا، وأن الآخرة خير وأبقى.

وأسأل الله لي ولكم الهداية والتوفيق.

أبو عبد الرحمن المصري

السيد بن أحمد أبو سيف



كيف نزهد في الدنيا

«الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، وهو عبارة عن:

انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع فإنما عدل عنه لرغبته عنه، وإنما عدل إلى المعدول إليه لرغبته في غيره، فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى: زهدًا، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى: رغبة وحبًا، فإذن يستدعي حال الزهد مرغوبًا فيه، ومرغوبًا عنه، والمرغوب فيه هو خير من المرغوب عنه، وشرط المرغوب عنه أن يكون هو - أيضًا - مرغوبًا فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عما ليس مطلوبًا في نفسه لا يسمى زاهدًا.

ومثال ذلك: من يزهد في الحجر والتراب، فذلك لا يسمى زاهدًا، ولكن من يزهد الدراهم والدنانير والأموال هو الذي يسمى زاهدًا؛ ذلك لأنه زهد في شيء مرغوب فيه، وهو: المال والغنى، ورغب في طاعة الله وقربه؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠]، فقد زهدوا فيه؛ إذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعًا في العوض، فإذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا، وكل من باع الآخرة

بالدنيا فهو ـ أيضًا ـ زاهد ، ولكن زهد في الآخرة.

ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة ، لم يتصور إلا بالعدول إلى شيء هو أحب منه، وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال، والذي يرغب عن كل ما سوى الله تعالى، ولا يحب إلا الله تعالى ، فهو الزاهد المطلق، والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ، ولم يزهد في الآخرة ، بل طمع في الحور ، والقصور، والأنهار والفواكة، فهو زاهد، ولكن دون الأول، والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض ، كالذي يترك المال دون الجاه فهو زاهد ، ولكن دون الزهد الأول والثاني»[1].

❑ ● ❑

والسؤال

كيف نزهد في الدنيا ؟

والجواب

«لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

النظر الأول: النظر في الدنيا ، وسرعة زوالها ، وفنائها ، واضمحلالها ، ونقصها، وخستها، وألم المزاحمة عليها ، والحرص عليها، وما في ذلك من الغُصص ، والنغص، والأنكاد ، وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب ذلك من الحسرة والأسف، فطالبها لا ينفك من هم

(١) «الإحياء» (٤/ ٣١١) بتصرف.

قبل حصولها ، وهم في حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها ، فهذا أحد الأمرين.

النظر الثاني: النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ـ ولا بد ـ ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات والتفاوت الذي بينه وبين ما هاهنا ، فهي كما قال سبحانه : ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى : ١٧] فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة .

فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقل إيثاره ، وزَهَدَه فيما يقتضي الزهد فيه، فكل أحد مطبوع على ألا يترك النفع العاجل، واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل ، واللذة الغائبة المنتظرة، إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل، وقويت رغبته في الأعلى الأفضل، فإذا آثر الفاني الناقص؛ كان ذلك إما لعدم تبين الفضل له ، وإما لعدم رغبته في الأفضل.

والإنسان إذا رغب في الدنيا وحرص عليها ؛ فهو إما أن يكون مصدق أن الآخرة أفضل، وزهد الآخرة؛ كان فاسد العقل سيئ الاختيار لنفسه، وإما أن يكون غير مصدق بأن الآخرة أفضل وأبقى، وذلك معدوم الإيمان.

ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره وأصحابه ، وصرفوا عنها قلوبهم، وطرحوها ، ولم يألفوها، وهجروها، ولم يميلوا إليها، وعدوها سجنًا لا جنة، فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب، ولوصلوا منها إلى كل مرغوب، فقد عرضت عليه ﷺ مفاتيح كنوزها فردها، وفاضت على أصحابه فآثروا بها، ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وعلموا أنها معبر وممر، لا دار مقام ومستقر وأنها دار عبور لا دار سرور، وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتم الزيارة حتى أذن بالرحيل.

قال النبي ﷺ : «ما لي وللدنيا، إنما أنا كراكب قال[١] في ظل شجرة ثم راح وتركها»[٢].

وقال ﷺ : «ما للدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم ترجع»[٣][٤].

❑ ● ❑

الله يرغب عباده في الزهد في الدنيا:

إن الدنيا في القرآن ما هي إلا زينة زائلة، فضرب الله تبارك وتعالى مثلاً فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٤ _ ٢٥].

قال الإمام ابن كثير «التفسير» (٢/٣٧٤):

«ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض، بماء أنزل من السماء، مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من أب وقضب وغير ذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي: زينتها الفانية ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ أي: حسنت بما خرج في رُباها من زهور نضرة مختلفة

(١) قال : أي : نام وقت القيلولة «الظهيرة».

(٢) خرجه البخاري (٣/ ٢١٣).

(٣) خرجه الترمذي (٤/ ٤٨٦) كتاب الزهد.

(٤) «الفوائد» (ص ١٠١ ، ١٠٢) لابن قيم الجوزية.

الأشكال والألوان ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على جذاذها وحصادها، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة، فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أي: يابسًا بعد الخضرة والنضارة: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ أي: كأنها ما كانت حينًا قبل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ﴾ لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها رغب في الجنة ودعا إليها وسماها دار السلام، أي: من الآفات والنقائص والنكبات». اهـ

وكذا كرر الله عز وجل الأمثال في القرآن ليخبرنا أن **الآخرة هي دار البقاء**، وأن **الدنيا هي دار الفناء**، **ولكي نقدر للآخرة قدرها وللدنيا قدرها** فقال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٤٥ - ٤٦].

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وأخبر - تعالى - أن الشهوات قد زينت للناس من حب النساء، وحب الأبناء، والمال، والخيل، والأنعام، والحرث، وذكر أن ذلك هو متاع الدنيا، ثم ذكر أن الله عنده حسن المآب، فقال: إن الخير ليس في ذلك، ولكن الخير في الآخرة لمن اتقى. قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ

وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ١٤ ـ ١٥].

وذم الله ـ عز وجل ـ الدنيا فقال: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾ [الرعد: ٢٦].

وتوعد الله لمن رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها، وغفل عن آياته، ولم يرج لقاءه فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧ ـ ٨].

ويكفي في الزهد في الدنيا قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧].

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [يونس: ٤٥].

وقوله: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقوله: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٢ ـ ٤٦].

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ [الروم: ٥٥].

وقوله: ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ

١١٤].

وقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ ـ ١٠٤].

❏ ● ❏

طرف من الزهد في حياة النبي ﷺ وأصحابه[1]:

النبي ﷺ يزهد الدنيا ويعلم صحابته الزهد فيها:

«دخل عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ ـ وهو على حصير ـ قال: فجلست فإذا عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، وقرظ ـ أي: ورق السلم يدبغ به ـ في ناحية في الغرفة، وإذا أهاب معلق، فابتدرت عيناي، فقال: «**ما يبكيك؟ يا ابن الخطاب!**» فقال: يا نبي الله! وما لي لا أبكي! وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت نبي الله وصفوته، وهذه خزانتك! قال: «**يا ابن الخطاب! ما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا**». خرجه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم.

● دخلت امرأة من الأنصار على عائشة فرأت فراش رسول الله ﷺ قطيفة مثنية فبعثت إليها بفراش حشوه الصوف، فدخل عليها رسول الله ﷺ فقال: «**ما هذا؟ يا عائشة!**» قالت: يا رسول الله! فلانة الأنصارية دخلت فرأت فراشك فذهبت فبعثت إليَّ بهذا، فقال: «**رديه يا عائشة! فوالله! لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة**».

(١) «حياة الصحابة» (٢/ ٢٥٤).

وهذا أبو بكر رضي الله عنه يزهدها كما زهدها النبي ﷺ:

• قال زيد بن أرقم: كنا مع أبي بكر رضي الله عنه فاستسقى، فأتي بماء وعسل، فلما وضعه على يده بكى وانتحب ـ أي: بكى بصوت ـ حتى ظننا أن به شيئًا، ولا نسأله عن شيء، فلما فرغ قلنا: يا خليفة رسول الله ﷺ! ما حملك على هذا البكاء؟ قال: بينما أنا مع رسول الله ﷺ إذ رأيته يدفع عن نفسه شيئًا، ولا أرى شيئًا فقلت: يا رسول الله! ما الذي أراك تدفع، ولا أرى شيئًا؟ قال: «**الدنيا تطولت لي، فقلت: إليك عني**»، فقالت: أما إنك لست بمدركي، قال أبو بكر: فشقَّ عليَّ، وخشيت أن أكون قد خالفت أمر رسول الله ﷺ ولحقتني الدنيا.

فيا للعجب! من رجل يؤتى بماء وعسل، وليس ذاك من النعيم في شيء، ولكنه يخشى أن تكون لحقته الدنيا، واغتر بها، وتنعم بها.

وهذا عمر رضي الله عنه يلحق بصاحبيه:

لما اجتمع بعض المسلمين، وهم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، قالوا: نريد أن نزيد لعمر في رزقه ـ أي: الدخل الذي يأخذه نظير الخلافة؛ لكي يتفرغ لشؤون المسلمين ـ؛ لأنه قد اشتدت حاجته، فانطلقوا إلى حفصة، وأخبروها الخبر، وطلبوا منها ألا تخبر عنهم، إلا إذا قبل الزيادة، فدخلت على عمر وأخبرته، فقال: من هؤلاء؟ قالت: لا سبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك، فقال: لو علمت من هم لسؤت وجوههم.

أنشدك بالله! ما أفضل ما لبس رسول الله ﷺ في بيتك من الملبس؟

قالت: ثوبين ممشقين، كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع.

قال: فأي الطعام ناله عندك أرفع؟

قالت: خبزنا خبزة شعير فصببنا عليها - وهي حارة - أسفل عكة لنا فجعلناها هشة دسمة ، فأكل منها.

فقال: أي مبسط كان يبسطه عندك من الفراش؟

قالت: كساء لنا ثخين ، كنا نربعه في الصيف، فنجعله تحتنا، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه.

قال: يا حفصة! فأبلغيهم عني أن رسول الله ﷺ قدر، فوضع الفضول مواضعها، وتبلغ بالترجئة، وإنما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقًا، فمضى الأول، وقد تزود زادًا فبلغ ، ثم اتبعه الآخر، فسلك طريقه فأفضى إليه، ثم اتبعه الثالث ، فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما، وكان معهما ، وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما.

فيا للعجب! من أناس باعوا الدنيا بالآخرة، وقد علموا أنهم قد أوتوا الآخرة، وبشرهم رسول الله ﷺ بأنهم من أهل الجنة، ولكنهم لم يرغبوا في الدنيا طرفة عين، فشوقهم للآخرة جعلهم يحتقرون نعيم الدنيا الزائل، ويقدرون له قدره الحق.

• ولما رأى حفص بن أبي العاص رضي الله عنه طعام عمر رضي الله عنه لم يأكل معه، فقال له عمر: ما يمنعك من طعامنا؟ قال: إن طعامك خشن ، غليظ، وإني راجع إلى طعام لين قد صنع لي ، فأصيب منه. قال: أتراني أعجز أن آمر بشاة فيلقى عنها شعرها، وآمر بدقيق فينخل في خرقة، ثم آمر به فيخبز خبزًا دقاقًا، وآمر بصاع من زبيب، فيقذف في سمن، ثم يصب عليه من الماء؛ فيصبح كأنه دم غزال؟ فقال حفص: إني لأراك عالمًا بطيب العيش. فقال عمر: أجل، والذي نفسي بيده! لولا كراهية أن ينقص من حسناتي يوم القيامة؛ لشاركتكم في عيشكم.

فما هذا الإصرار الغريب منك يا عمر، يا فاروق الأمة على أن تجمع الحسنات، ولا تترك نفسك لأهوائها، ولا تتبع شهوات النفس، ولا تميل بك نفسك حتى إلى الحلال الذي فيه ترف، فما هذا الإصرار على الآخرة، ونيل ما فيها من الخير. وأين الملوك - الآن - من هذه الكلمات، وأين الفقراء الذين لم ينالوا حظًا من الدنيا ويتمنونها.

- وانظر إلى عبد الله بن الزبير لما زهد في الدنيا، ورغب في الآخرة، فكان إذا أقبل على ربه في الصلاة، نسي كل شيء، وخاف مقام ربه.

عن ثابت البُناني، قال: كنت أمر بعبد الله بن الزبير وهو يصلي خلف المقام كأنه خشبة منصوبة لا يتحرك.

وقال الأعمش: عن يحيى بن وثاب: كان ابن الزبير إذا سجد وقعت العصافير على ظهره تصعد وتنزل لا تراه إلا جذم حائط.

وقال غيره: كان ابن الزبير يقوم ليله حتى يصبح - أي: يظل يقرأ القرآن في الركعة الواحدة إلى أن يطلع عليه الصبح - ويركع ليله حتى يصبح، ويسجد ليله حتى يصبح.

وقال بعضهم: ركع ابن الزبير - يومًا - فقرأت البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، وما رفع رأسه.

وقال ابن المنكدر: لو رأيت ابن الزبير يصلي كأنه غصن شجرة يصفقها الريح، والمنجنيق يقع هاهنا وهاهنا.

قال سفيان: كأنه لا يبالي به، ولا يعده شيئًا. وحكى بعضهم لعمر ابن عبد العزيز أن حجرًا من المنجنيق وقع على شرفة المسجد فطارت فلقة منه فرمت بين لحية ابن الزبير وحلقه فما زال عن مقامه، ولا عرف ذلك في

صورته، فقال عمر بن عبد العزيز: لا إله إلا الله! جاء ما وصفت(١).

● **وأما عن الزاهدين في الدنيا، الخائفين من النار(٢):**

قال بعض السادة لولده ـ لما حضرته الوفاة ـ: يا بني! اسمع وصيتي، واعمل ما أوصيك به، قال: نعم! يا أبت، قال: يا بني، اجعل في عنقي حبلاً، وجرني إلى محرابي، ومرغ خدي على التراب، وقل: هذا جزاء من عصى مولاه، وآثر شهوته وهواه، ونام عن خدمة مولاه، قال: فلما فعل ذلك به، رفع طرفه إلى السماء، وقال: إلهي وسيدي ومولاي، قد آن الرحيل إليك، وأزف القدوم عليك، ولا عذر لي بين يديك، غير أنك الغفور، وأنا العاصي، وأنت الرحيم، وأنا الجاني، وأنت السيد وأنا العبد، ارحم خضوعي وذلتي بين يديك، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك.

قال: فخرجت روحه في الحال.

وروي عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه قال: دخلت على بعض المجوس وهو يجود بنفسه عند الموت، وكان منزله بإزاء منزلي، وكان حسن الجوار، وكان حسن السير، حسن الخلاق، فرجوت أن الله يوفقه عند الموت، ويميته على الإسلام، فقلت له: ما تجد؟ وكيف حالك؟ فقال لي: قلب عليل، ولا صحة لي، وبدن سقيم، ولا قوة لي، وقبر موحش، ولا أنيس لي، وسفر بعيد، ولا زاد لي، وصراط دقيق، ولا جواز لي، ونار حامية، ولا بدن لي، وجنة عالية، ولا نصيب لي، ورب عادل، ولا حجة لي.

(١) «البداية والنهاية» (٨/ ٣٣٨).

(٢) «بحر الدموع» للإمام ابن الجوزي.

قال الحسن: فرجوت الله أن يوفقه، فأقبلت عليه، وقلت له: لم لا تُسلم حتى تَسلمَ؟

قال: يا شيخ! إن المفتاح بيد الفتاح، والقفل هـهنا، وأشار إلى صدره وغشي عليه.

قال الحسن: فقلت: إلـهي وسيدي ومولاي، إن كان سبق لهـذا المجوسي عندك حسنة فعجل بها إليه قبل فراق روحه من الدنيا ، وانقطاع الأمل.

فأفاق من غشيته، وفتح عينيه ، ثم أقبل ، وقال: يا شيخ! إن الفتاح أرسل المفتاح، امدد يمناك، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله ، ثم خرجت روحه وصار إلى رحمة الله.

وكذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لم يكن له وقت ينام فيه، فكان ينعس وهو جالس، فقيل له: يا أمير المؤمنين! ألا تنام؟ فقال: كيف أنام؟ إن نمت بالنهار؛ ضيعت حقوق الناس، وإن نمت بالليل؛ ضيعت حظي من الله.

ويروى عن المزني، قال: دخلت على الشافعي ﷺ في علته التي مات منها، فقلت له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقًا، ولكأس المنية شاربًا، ولسوء عملي ملاقيًا، وعلى الله واردًا، فلا أدري: أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها، أم إلى النار فأعزيها؟ ثم بكى ، وأنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ∴ جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ∴ بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ∴ تجود وتعفو منّة وتكرما
فلولاك لم ينجُ من إبليس عابد ∴ وكيف وقد أغوى صفيك آدما

ويروى عن بعض المتعبدين أنه قال: إلـهي ! عصيتك قويًا، وأطعتك ضعيفًا، وأسخطتك جلدًا، وخدمتك نحيفًا، فياليت شعري! هل قبلتني على لؤمي، أم صرفتني على جرمي؟ قال: ثم غشي عليه ووقع في الأرض، وانسلخت جبهته.

فقامت إليه أمه، وقبلته بين عينيه، ومسحت جبهته ، وهي تبكي، وتقول: قرة عيني في الدنيا، وثمرة فؤادي في الآخرة، كلم عجوزك الثكلى، ورد جواب أمك الحرى.

قال: فأفاق الفتى من غشيته، ويده قابضة على كبده، وروحه تتردد في جسده، ودموعه تنسكب على خده ولحيته، فقال لها: يا أماه! هـذا اليوم الذي كنت تحذرينني منه، وهـذا هو المصرع الذي كنت تخوفينني منه، هـذا مصرع الأهوال، وسقوط عثرة الأثقال، فيا أسفًا على الأيام الخالية، ويا جزعي من الأيام الطوال التي لم أعرج فيها على الإقبال.

يا أماه! أنا خائف على نفسي أن يطول في النار سجني وحبسي، يا حزناه إن رميت فيها على رأسي، ويا أسفاه إن قطعت فيها أنفاسي.

يا أماه! افعلي ما أقول لك.

فقالت له: يا بني! فدتك نفسي ، ماذا تريد؟

قال لها: ضعي خدي على التراب، وطئيه بقدمك حتى أذوق طعم الذل في الدنيا، والتذلل للسيد المولى، عسى أن يرحمني وينجيني من نار لظى، قالت أمه: فقمت إليه في الحال، وقد ألصق خده بالتراب، والدموع تجري من عينيه كالميزاب، فوطئت خده بقدمي ، فإذا هو ينادي بصوت ضعيف: هـذا جزاء من أذنب وعصى، هـذا جزاء من أخطأ وأساء، هـذا

جزاء من لم يقف بباب المولى، هذا جزاء من لم يراقب العلي الأعلى.

قالت: ثم تحول إلى القبلة، وقال: لبيك! لبيك، لا إله إلا أنت سبحانك! إني كنت من الظالمين.

قال: ثم مات في مكانه، فرأته أمه في المنام كأن وجهه فلقة قمر، تجلى من سحاب، فقالت له: يا بني! ما فعل بك مولاك؟ قال: رفع درجتي، وقربني من محمد ﷺ، فقالت له أمه: يا بني! ما الذي سمعت منك تقوله عند وفاتك؟ فقال لها: يا أماه! هتف بي هاتف، وقال لي: يا عمران! أجب داعي الله، فأجبته، ولبيت ربي - عز وجل - رحمه الله تعالى.

• أما إن أردت أن تزهد في النساء:

ولا أعني أن تزهد في زوجتك، أو ما أحل الله لك، ولكن أعني أن تزهد في النساء المحرمات عليك. فانظر إلى هؤلاء الرجال:

فيروى عن مالك بن دينار رضي الله عنه، أنه كان ماشيًا في بعض أزقة البصرة، إذا هو بجارية من جواري الملك، راكبة ومعها الخدم والمماليك، فسمع مالك حسها خلفه، فالتفت إليها وهي راكبة، فرأى زهرتها وهيأتها وحالها، فنادى: أيتها الجارية هل يبيعك مولاك؟

قال: فلما سمعت منه تلك الكلمة، نظرت إليه، فرأت عليه عباءة خلقة بالية، وله هيأة حسنة وتواضع وسكينة لله عز وجل.

فقالت للخدم: أمسكوا مطيتي، فمسكوها، فردت رأسها إليه، وقالت له: يا شيخ! أعد علي مقالتك، قال: قلت: هل يبيعك مولاك؟ قالت: ويلي عليك، وهل لمثلك ما يشتريني به لو باعني؟

قال: فحف به المماليك، قال: خلوا عني أسير معكم، فسار معهم حتى أتت قصرها، فقام إليها حجبة الدار فأنزلوها، فدخلت، وبقي مالك بباب القصر حتى وصلت إلى مولاها، فقالت: يا مولاي! ألا أحدثك بعجب؟!

قال: وما هو يا حسنة؟

قالت: يا مولايَ! لقيني شيخ كبير فقير، عليه عباءة رثة بالية، فنظر إلى حسني وجمالي وبهائي وكمالي ومماليكي، فأعجبه ما رأى من هيأتي، فقال: هل يبيعك مولاك؟ فضحك مولاها من ذلك، وقال لها: وأين هو، ويلك؟ قالت: قد جئت به معي، وها هو بباب القصر، فقال: أدخلوه علي.

فدخل مالك، ولم يعرفه الرجل، فلما وقف بباب مجلسه، إذ هو ببيت مملوء بضروب من الوطأ، والمتكأ، وإذا هو بصاحب القصر قاعد على مرتبة عظيمة، فجعل مالك ينظر إليه، فقال: ما لك؟ ادخل أيها الشيخ.

فقال مالك: لا أدخل حتى ترفع هذا الوطاء، وتغيب عني فتنته، حتى لا أنظر إليه، ولا أطأ شيئًا منه.

فألقى الله الهيبة والطاعة في قلب صاحب القصر، فأمر برفع الوطاء والبسط، حتى كشف عن الرخام، وقعد صاحب القصر على كرسي، قال: اجلس أيها الشيخ كما أحببت.

قال: لا والله حتى تنزل عن هذا الكرسي، وتجلس على هذا المرمر، قال: فجلس الرجل، وجلس مالك معه.

فقال رب البيت: قل حاجتك أيها الشيخ.

قال: جاريتك هذه التي دخلت عليك الساعة، أتبيعها لي؟

فقال له صاحب القصر: وهل لك ما تبتاعها به مني؟

قال: وما ثمنها؟

قال له: إن من شأنها وقدرها وحالها ومالها ، تساوي كذا وكذا ألفًا.

فقال مالك: والله ما تساوي عندي نواتين مسوستين ، فضحك الرجل، وضحكت الجارية، وضحك الجواري والخدم من وراء الستر من كلام مالك.

فقال مالك: ما الذي أضحككم؟

قال صاحب البيت: وكيف كان ثمنها بهذه الخساسة عندك؟

فقال مالك: لكثرة عيوبها.

قال: وما أعلمك بعيوبها؟

قال: أنا أعلم من عيوبها ما لم تعلم أنت.

قال: أعلمني بها، وأوقفني عليها.

قال: إن لم تتعطر تغيرت، وإن لم تستك بخرت، وإن لم تغتسل بظرت، وإن لم تمتشط قملت وشعثت، وإن عمرت عن قليل هرمت وهي ذات بخار، وبصاق، وحيض، وبول ، وغائط، وأقذار جملة، وآفات بينة، ولعلها لا تريدك إلا لنفسها، ولا تحبك إلا لتمتعها بك، وتمتعك بها، فلا تفي بعهدك، ولا تصدق في ودك وعهدك، ولا يتخلف عليها أحد من بعدك إلا رأته مثلك، وأنا أجد بدون ما سألت جارية خلقت من سلالة الكافور، ولو مزج بريقها الأجاج لطاب، ولو دعي ميت بكلامها لأجاب، ولو بدا

معـصمهـا للشمس لأظلمت دونه، ولو برز لسـواد الليل لسطع نوره، ولو واجهت الآفاق بحليها وحللها لتزخرفت، ولو نفخ ريح ذوائبها على الأرض وما فـيها لتـعطرت، فهي العطرة الشكلة المعنجـة المتنسقـة، التي نشأت في رياض المسك والزعفران وغنيت بماء التسـنيم، فلا يكسف بالها، ولا يحول حالها، ولا يخلف عهدها، ولا يتبدل ودها، ولا يتوقع صدها، فأيهما أحق بالرفعة أيها المغرور؟

قال: التي والله وصفت ، فما ثمنها يرحمك الله؟

قال: اليسير المبذول، أن تتفرغ ساعـة من ليلك، فتقوم فتصلي ركعتين تخلصهـما لربك، وأن تضع طعامك بين يديك، فتـذكر جائعًا، فـتؤثره لله على شهوتك، وأن تخطو بالطريق فتلتقط منه حجرًا ومدرًا وأن تحرك لسانك بطيب الكلام، أو بذكر الله، وأن تـقطع أيامك باليسيـر من القوت، وترفع همتك عن دار الغـفلة، فتعيش في الـدنيا عيش القنوع راسخًـا، وتأتي غدًا يوم القيامة آمنًا، وتنزل على الملك الأكبر مخلدًا.

قال: فعند ذلك نادى : يا جارية.

قالت: لبيك يا مولاي.

قال: أسمعت ما قال الرجل؟

قالت: نعم.

قال لها: هل هو صادق ، أم كاذب؟

قالت: بل هو والله صادق.

قال: فأنت حرة لوجه الله ـ تعالى ـ وضـيعة كذا وكذا عليك صدقة،

وأنتم أيها الغلمان أحرار، وضياع كذا وكذا عليكم صدقة، وهذه الدار صدقة بجميع ما فيها من الأثاث والأموال على الفقراء والمساكين.

ومد يده على ستر كان على بعض أبوابه، فأخذه وستر به نفسه، ورمى جميع ما كان عليه من اللباس.

قالت الجارية: يا مولاي! لا عيش لي بعدك، فرمت بكسوتها، ولبست ثوبًا خشنًا وخرجت معه، فودعهما مالك بن دينار، ودعا لهما وأخذا طريقًا، وأخذ مالك طريقًا آخر.

قال ناقل الحديث: فذكر أنهما لم يزالا يعبدان الله - عز وجل - على تلك الحالة حتى لقياه.

وهذا أبو بكر المسكي:

قيل لأبي بكر المسكي: إنا نشم منك رائحة المسك مع الدوام؟ فما سببه؟ فقال: والله لي سنين عديدة أستعمل المسك، ولكن سبب ذلك أن امرأة احتالت عليّ حتى أدخلتني دارها، وأغلقت دوني الأبواب، وراودتني عن نفسي، فتحيرت في أمري، فضاقت بي الحيل، فقلت لها:

إن لي حاجة إلى الطهارة.

فأمرت جارية لها أن تمضي بي إلى بيت الراحة، ففعلت، فلما دخلت بيت الراحة أخذت العذرة وألقيتها على جميع جسمي، ثم رجعت إليها وأنا على تلك الحالة، فلما رأتني دهشت، ثم أمرت بإخراجي، فمضيت واغتسلت، فلما كانت تلك الليلة رأيت في المنام قائلا يقول لي: فعلت ما لم يفعله أحد غيرك؛ لأطيبن ريحك في الدنيا والآخرة، فأصبحت والمسك

يفوح مني، واستمر ذلك إلى الآن[1].

• وانظر كيف تكون عاقبة اتباع الهوى:

قال بعض السادات: كنت جالسًا عند الحسن البصري رضي الله عنه، فمر بنا قوم يجرون قتيلاً، فلما رآه الحسن البصري، وقع مغشيًا عليه، فلما أفاق من غشيته، سألته عن أمره فقال: إن هذا الرجل كان من أفضل العباد، وكبار السادات الزهاد، فقلت له: يا أبا سعيد! أخبرنا بخبره، وأطلعنا على أمره.

قال: إن هذا الشيخ خرج من بيته يريد المسجد ليصلي فيه، فرأى في طريقه نصرانية، فافتتن بها، فامتنعت عليه، فقالت: لا أتزوجك حتى تدخل في ديني، فلما طالت المدة، وزاد به الأمر جبذته شهوته، ثم غلبت عليه شقوته، فأجاب إلى ذلك، وبرئ من دين الحنيفية.

فلما صار نصرانيًا، وكان منه ما كان، خرجت المرأة من خلف الستر، وقالت: يا هذا لا خير فيك، خرجت من دينك الذي صحبته عمرك من أجل شهوة لا قَدْرَ لها، لكن أنا أترك دين النصرانية طلبًا لنعيم لا يفنى عني طول الأبد في جوار الواحد الصمد، ثم قرأت: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)**﴾ [سورة الإخلاص]. فتعجب الناس من أمرها، وقالوا لها: أكنت تحفظين هذه السورة قبل هذا؟! قالت: لا والله، ما عرفتها قط، ولكن هذا الرجل لما ألح علي، رأيت في النوم كأني دخلت النار، فعرض علي مكاني منها، فارتعبت وخفت خوفًا شديدًا، فقال لي مالك: لا تخافي ولا تحزني، فقد

(١) «المواعظ والمجالس» للإمام ابن الجوزي.

فداك الله بهـذا الرجل منها، ثم أخذ بيدي وأدخلني الجنة، فوجدت فيها سطرًا مكتوبًا فقرأته فوجدت فيه: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ ، ثم أقرأني سورة الإخلاص، فأقبلت أرددها ، ثم انتبهت وأنا أحفظها.

قال الحسن: فأسلمت المرأة ، وقتل الشيخ على ردته نصرانيًا، نسأل الله العافية.

• موعظة:

يروى أن محمد بن واسع رأى شبابًا في المسجد، قد خاضوا في بحر الغيبة والضلالة، فقال لهم: أيجمل بأحدكم أن يكون له حبيب، فيخالفه ليفوز به غيره؟ فقالوا: لا. فقال: أنتم قعود في بيت الله تخالفون أمره، وتغتابون الناس، فقالوا: قد تبنا، فقال: يا أولادي! هو ربكم وحبيبكم، وإذا عصيتموه، وأطاعه غيركم، خسرتموه، وربحه غيركم، أفلا يضركم ذلك؟ قالوا: نعم! فقال: ومن خالفه، وربما عاقبه لو عاقبه، أفلا تغيرون على شبابكم كيف يعاقب بالنار والعذاب وغيركم يفوز بالجنة والثواب ، قالوا: نعم، وحسن رجوعهم إلى الله تعالى.

• جزاء الإحسان:

ويروى عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه قرأ: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، فقال: هذه موعظة وعظ الله بها المسلمين، وذلك أن الحور العين تقول لولي الله ـ وهو متكئ على نهر العسل وهي تعطيه الكأس ، وهما في

(١) «بحر الدموع» للإمام ابن الجوزي.

نعيم وسرور - : أتدري يا حبيب الله متى زوجنيك الله ربي؟ فيقول: لا أدري. فتقول: نظر إليك في يوم صائف بعيد ما بين الطرفين ، وأنت في ظمأ الهواجر، فباهى بك الملائكة، وقال: انظروا يا ملائكتي إلى عبدي، ترك شهوته، ولذته، وزوجته، وطعامه، وشرابه، رغبة فيما عندي، أشهدكم أني قد غفرت له، فغفر لك يومئذ وزوجنيك.

• الصالحون واتهام النفس:

يُروى عن رجل من أصحاب داود الطائي، أنه قال: دخلت على داود، فقال لي: ما حاجتك؟ قلت: زيارتك. فقال: أما أنت، فقد عملت خيرًا حين زرتنا، ولكن انظر ماذا ينزل بي إذا قيل لي: من أنت فتزار؟ أمن العُبَّاد أنت؟ لا والله، أمن الزهاد أنت؟ لا والله، ثم أقبل يوبخ نفسه، ويقول: كنت في الشباب فاسقًا، وفي الكهولة مُداهنًا، فلما شخت صرت مرائيًا، لا والله إلا المرائي، أشر من الفاسق، وجعل يقول: يا إله السموات والأرض! هب لي رحمة من عندك تصلح شبابي، وتقيني من كل سوء ، وتعلي في أعلى مقامات الصالحين مكاني.

• الشكر والزهد في الدنيا:

وروي أن رجلاً من أهل دمشق يسمى بأبي عبد ربه، وكان أكثر أهل دمشق مالاً، وأنه خرج مسافرًا، فأمسى إلى جانب نهر ومرعى، فنزل فيه، فسمع صوتًا يكثر حمد الله في ناحية المرج، قال: فاتبعته ، فوجدته رجلاً ملفوفًا في حصير، قال: فسلمت عليه، وقلت له: من أنت يا عبد الله؟

قال: رجل من المسلمين.

فقلت له: فما هذه الحالة؟

قال: نعمة يجب علي شكرها.

فقلت: كيف وأنت ملفوف في حصير، وأي نعمة عليك؟

قـال: إن الله خلقني، فأحسن خلقي، وجعل منشأي ومولدي في الإسلام، وألبسني العافية في أركاني، وستر علي ما أكره ذكره، فمن أعظم نعمة ممن أمسى في مثل ما أنا فيه؟

فقلنا: رحمك الله، لعلك أن تقوم معي إلى منزلي، فإنا نزول على النهر هاهنا بإزائك.

قال: ولم؟

قلت: لتصيب شيئًا من الطعام، ونعطيك ما يغنيك عن لبس الحصير.

قال: ما لي في ذلك من حاجة.

فأبى أن يسير معي، فانصرفت وقد تقاصرت عندي نفسي ومقتُّها، وقلت: لم أخلف بدمشق رجلاً أكثر مني مالاً، وأنا ألتمس الزيادة.

فقلت: اللهم ! إني أتوب إليك مما أنا فيه، فتبت ولم يعلم أحد بما أجمعت عليه، فلما كان في السحر، رحل الناس، وقدموا إلي دابتي، فصرفتها إلى دمشق، وقلت: ما أنا بصادق في التوبة إن أنا مضيت إلى متجري، فسألني القوم فأخبرتهم، فعاتبوني على ترك المشي معهم، فأبيت.

فلما قدم على دمشق قال ناقل الحديث: فوضع يده في ماله وتصدق به، وفرقه في سبيل الله، ولزم العبادة حتى توفي رضي الله عنه، فلما توفي لم يوجد عنده إلا قدر حق الكفن.

- **الابتلاء في آخر لحظات العمر:**

وحكى ابن عباس عن كعب الأحبار رضي الله عنهما أنه قال: كان في

بني إسرائيل صديق منفـرد للعبادة، فأقام في صومـعته دهرًا طويلاً ، وكان يأتيه ملك في كل غدوة وعشية، فيـقول له الملك: ألك حاجة؟ فيقول: الله أعلم بحاجتي.

وأنبت الله له فوق الصـومعة كرمة، تحـمل في كل يوم بالعنب، وكان إذا عطش مد يده فينبع منها الماء، فيشرب منه.

فلمـا كان بعد مـدة، مرت امـرأة لها حـسنٌ وجمال، عنـد المغرب، فنادته: يا عبد الله! فقال لها: لبيك ، فقالت له: أيراك ربك؟ قال لها: هو الله الواحد القهار، الحي، القـيوم، العالم بما في الصدور ، وباعث من في القبور، قالت له: البلد مني بعيد. قال لها: اصعدي.

فلما صارت في صومعته ، رمت بثيابها ، وقامت عريانة، تجلو نفسها عليه، فغض بصره عنها، وقال لهـا: ويلك! استري نفسك، قالت له: وما يضرك إذا تمتعت بي في هـٰذه الليلة؟

فقال لنفسه: يا نفس! وما تقولين؟ قالت: والله إني أتمتع بها.

قـال لهـا: ويحك! أتريدين سـرابيل القطران، ومـقطعـات النيـران، وتذهبين بعبادتي هـٰذه المدة، وليس كل من زنىٰ عُفي عنه، وإن الزاني يُكب علىٰ وجـهـه في النار، وهي نار لا تطفـأ، وعذابهـا لا يفنىٰ، وأخـاف أن يغضب الله عليك، ولا يرضىٰ أبدًا عنك.

فراودتـه نفسه عـلىٰ ذلك، فقـال: أعرض عليك نارًا صـغيـرة، فإن صبرت عليها متعتك بهـٰذه الجارية في هـٰذه الليلة.

قال: فـملأ السراج دهنًا، وأغلظ الفـتيلة، والمرأة تسمع وتبـصر، ثم ألقىٰ يده إلىٰ الفتيلة، وهي تتـقد، فصاح بالفتيلة: مـالك؟ أحرقي، فأكلت إبهامة، ثم أكلت أصابعه، ثم أكلت يده، فصـاحت الجارية صيحة عظيمة،

وأغشي عليها، فسترها بثوبها.

فصرخ إبليس ـ لعنه الله ـ : أيها الناس! إن العابد قد زنى بفلانة بنت فلان وقتلها.

فركب الملك في جنده وأهل مملكته، فلما انتهى إلى الصومعة صاح، فأجابه العابد، فقال له: أين فلانة بنت فلان؟ قال له: عندي هاهنا، قال له: قل لها أن تنزل، قال له: إنها قد ماتت.

قال له الملك: ما رضيت بالزنى حتى قتلت النفس التي حرم الله؟ فهدم الصومعة، وجعل في عنق العابد سلسلة، فجره بها، وحُملت المرأة، وجيء بالعابد إلى موقف العذاب، وكان القوم ينشرون الزاني بالمنشار، ويد العابد ملفوفة في كمه وهو لا يُعلمهم بقصته.

فوضع المنشار على رأسه، وقيل لأصحاب العذاب: جروا، فجروا.

فلما مات أفاقت المرأة، وقالت: مات والله مظلومًا، ما زنى وما أنا إلا بخاتمي بكر.

• أعين تبكي من خشية الله:

كانت عابدة من أحسن النساء عينًا، فأخذت في البكاء، فقيل لها: تذهب عيناك. فقالت: إن يكن لي عند الله خير فسيبدلني خيرًا منها، وإن تكن الأخرى، فوالله ما أحزن عليها.

• الداء والدواء:

قال محمد بن إبراهيم الكوفي: سمعت محمد بن السماك يقول: كنت كثيرًا ما أطلب الزهاد والعباد، فذكر لي رجل من الزهاد بـ «عبادان» فخرجت في طلبه؛ حتى أتيت عبادان فسألت عن منزله فرشدت إليه،

فقرعت عليه الباب ، فخرجت لي جارية خماسية القد، أي: طولها خمسة أشبار. فقالت: ما شأنك أيها الطارق؟ قلت: أريد منزل فلان، قالت: عليه وقعت، فما حاجتك؟ قلت: أحب أن تستأذنيه لي في الدخول عليه، قال: فدخلت فإذا أنا برجل قد احتفر قبرًا ووضع فيه رجليه، وبيده خوص يصنعه وهو يتلو هذه الآية : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١] فسلمت عليه، فرد علي السلام، وقال: ما اسمك؟ قلت: محمد. قال: ابن مَنْ؟ قلت: ابن السماك. قال: لعلك الواعظ؟ قلت: أجل. قال: إن الواعظ عندي بمنزلة الطبيب، وبي داء قد أعيا المعالجين قبلك، فعسى أنت تناله برفقك، وتلصق عليه بعض مراهمك لما تعلم أنه يلائمه منها، فقلت: أما تعلم أنه لا دار بعد هذه الدار إلا الجنة أو النار؟ قال: فتغير وجهه. فقلت: يا أخي! إن العمر قد ولَّى، والضعف قد تَوَلَّى، وإن كاتبيك قد حفظا عليك ما سلفك من قبيح العمل، ولعل المنية تعاجلك قبل إدراك الأمل. قال: فلما سمع ذلك لم يتمالك أن شهق شهقة، وخر مغشيًا عليه، فأقبلت امرأته وابنته تبكيان من خلف الستر، فبقي كذلك طويلاً، ثم أفاق، وقال: يابن السماك! قد وافق دواؤك دائي، ولصق بجلدي، زدني؛ فإن المرهم إذا خلف المرهل اندمل الجرح والتأم، فقلت: يا أخي! نحن على يقين من ذنوب سلفت، وفي شك من قبول توبة، فإن جاد بالفضل فأين ذبول الخجل خشية العتاب؟ وإن قضى بالعدل فأين تحول الرِّجل خيفة العقاب؟ قال: فصرخ صرخة عظيمة، وخر مغشيًا عليه، فمكث طويلاً، ثم أفاق ، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، ثم سكن طويلاً، فحركته فإذا هو ميت.

- • **قلب يتمزق من شدة المعصية:**

قال منصور بن عمار: بينما أنا أردت الحج؛ إذ دفعت إلى الكوفة ليلاً، وكانت ليلة مدلهمة فانفردت من أصحابي، ثم دنوت إلى زقاق باب دار، فسمعت بكاء رجل وهو يقول - في بكائه -: إلهي وعزتك وجلالك ما أرت بمعصيتي مخالفتك، ولكني عصيتك إذ عصيتك بجهلي، وخالفتك إذ خالفتك لشقوتي، فالآن من عذابك من ينقذني، وبحبل من أتصل إذا انقطع حبلك عني وا ذنوباه... وا غوثاه... يا الله...

قال منصور: فأبكاني والله، فوضعت فمي على شق الباب، وقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. إن الله هو السميع العليم. بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [التحريم:٦] الآية. قال: فسمعت عند ذلك اضطرابًا شديدًا، ثم خمد الصوت، فوضعت حجرًا على الباب لأعرف الموضع، فلما أصبحت غدوت إليه فإذا بأكفان أصلحت ، وعجوز تدخل الدار باكية، وتخرج باكية، فقلت لها: يا هذه! ما هذا الميت لك؟ فقالت: إليك عني يا عبد الله! لا تجدد علي أحزاني، فقلت: إني أريد هذا لوجه الله الكريم لعلك تستودعيني دعوة، فإني منصور بن عمار، واعظ أهل العراق، قالت: يا منصور! هذا ولدي. قلت: فما كانت صفته؟ قالت: كان من آل رسول الله ﷺ يكتسب ما يكتسب فيجعله أثلاثًا: ثلثًا لي، وثلثًا للمساكين، وثلثًا يفطر عليه، وكان يصوم النهار، ويقوم الليل؛ حتى إذا كان آخر ليلة أخذ في بكائه وتضرعه، فمر رجل في هذه الليلة ، وتلا آية من كتاب الله تعالى، فلم يزل حبيبي يضطرب حتى أصبح وقد فارق الدنيا. رحمه الله تعالى.

▫ ● ▫ الله هو الهادي ▫ ● ▫

قـال تعـالىٰ: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

إن الله - عز وجل - هو الذي جعل الكون؛ لذا فقد كانت صفة الهداية، ملازمة لصفة الخلق، فهو خلق الخلائق، ثم هداهم إلىٰ ما ينفعهم في حياتهم وآخرتهم.

فهذا ثعبان الماء، متىٰ اكتمل نموه، هاجر من مختلف البرك والأنهار، قاطعا آلاف الأميال في المحيط، قاصدًا إلىٰ الأعماق السحيقة جنوب «برمودة» حيث ملتقىٰ ثعابين الماء من كل أنحاء العالم، وهناك يبيض ويموت.

أما صغارها تلك التي تملك وسيلة تتعرف بها علىٰ أي شيء، سوىٰ أنها في مياه قفرة، فإنها تعود أدراجها، وتجد طريقها إلىٰ الشاطيء الذي جاءت منه أمهاتها، ومن ثم إلىٰ كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة، ولذا يظل كل جسم في الماء آهلا بثعابين البحار، ولم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكي في المياه الأوربية أو العكس[1].

وخطر لعالم أمريكي أن يستفرخ البيض، دون حضانة الدجاج، بأن يضع البيض في نفس الحرارة التي نالها البيض من الدجاجة الحاضنة له، فلما جمع البيض ووضعه في جهاز التفريخ نصحه فلاح أن يقلب البيض؟ إذ أنه رأىٰ الدجاجة تفعل ذلك، فسخر منه العالم، وأفهمه أن الدجاجة، إنما تقلب البيض لتعطي الجزء السفلي منه حرارة جسمها الذي حرمه، أما

---

(١) سعيد حوىٰ. والعلم يدعو إلىٰ الإيمان.

هو فقد أحاط البيض بجهاز يشع حرارة ثابتة لكل أجزاء البيضة، واستمر العالم في عمله حتى جاء دور الفقس، وفات ميعاده، ولم تفقس بيضة واحدة، وأعاد التجربة، وقد استمع إلى نصيحة الفلاح، أو بالأحرى إلى تقليد الدجاجة، فصار يقلب البيض حتى إذا واتى ميعاد الفقس خرجت الفراريخ، وآخر تحليل علمي لتقليب البيض، أن الفرخ حينما يخلق في البيضة تترسب المواد الغذائية في الجزء الأسفل من جسمه، إذا بقي بدون تحريك أوعيته، ولذلك فإن الدجاجة لا تقلب البيض في اليوم الأول والأخير[1].

❑ ● ❑

❑ ● ❑ كيف يهدي الله الإنسان ❑ ● ❑

«الهداية هي: البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة.

• • مراتب الهداية:

الهداية تنقسم إلى هدايتين مستقلتين هما:

١ ـ هداية الإرشاد وهي التي جاء بها الرسل، وهي بمعنى الدلالة، أي الإرشاد إلى الطريق الصحيح، وإلى معرفة الله حق المعرفة، وهذه الهداية قاصرة على الإخبار والنصح والإرشاد، وإزالة الشبهات، وأخبر عنها القرآن في قوله تعالى: **﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ﴾** [الشورى: ٥٢-٥٣].

٢- هداية القلب وتثبيته حتى الوفاء، وهذه الهداية انفرد بها الله - عز

---

(١) السابق.

وجل- حيث إن الله لا يعطي هذه الهداية، إلا لمن أحب، ويمنعها من يفعلون المعاصي، وهذه الهداية هي التي أمرنا الله - عز وجل - أن نسأله إياها في قوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة].

• **هل تختص الهداية بأحد غير أحد؟**

إن الله الهادي العظيم قد أعطى الهداية للناس كافة، وهي هداية الإرشاد، حيث خصهم جميعا بإرسال الرسل، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣]. فإرسال موسى لقومه بكتاب وآيات، فما ذاك إلا ليهتدوا، فهذه هداية الإرشاد، ثم تجد الناس في مثل هذا الإرشاد ينقسمون إلى قسمين: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢١]. فهكذا يتلقى الناس جميعا الهدي، ولكن منهم من يتبع الهدي، ومنهم من يكفر به، فالذين آمنوا واتبعوا الهدى أولئك ﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]. فبذلك تكون الهداية الأولى وهي إرشاد الرسل إلى الناس. فمن تقبلها بقبول حسن، فهؤلاء الذين ينطبق عليهم الهدى، ويدخلون في الهداية الثانية، وهي زيادة الهدى، ثم ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا﴾ [الكهف: ١٤].

ومن الناس من يكره الهدى، ويحب العمى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧].

• **ما ثمرات الهدى؟**

إن من أجل ثمرات الهدى هي: الرضا بقضاء الله، وتعلق القلب بالله، فكل أمر ونهي به من المشقة على النفس، الشيء الذي يجعل النفس،

تنتهي عمـا تحب، أو تفعل ما لا تحب، وبمعنى آخر: قـد يكون المرء محب للنساء، ولكن أمر بغض البصر، فالغض هنا به مشقة على النفس، وكذلك يحب المرء الحيـاة، وأمر بالجهـاد، وبذل النفس، وهذا أيضا به مشـقة على النفس ولكن من سـار في طريق الهـداية، وجـد أن الله يسيـر له كل شيء ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقد حدد الله الطريق إلى الهدى، فقال: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

- **مراتب الهداية الخاصة والعامة[١]:**

١- تكليم الله لعبده يقظة بلا وساطة:

وهذه أعلى مراتبها، كما كلم موسى بن عمران، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

٢- الوحي المختص بالأنبياء:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [النساء: ١٦٣].

٣- إرسال الملائكة إلى الرسل من البشر:

فهذه مرتبة خاصة بالأنبياء، ولا تكون لغيرهم.

٤- مرتبة التحدث:

وهذه دون مرتبة الـوحي الخاص، وتكون دون مرتبة الصـديقين، كما كانت لعـمر بن الخطاب، كمـا قال النبي ﷺ «**إنه كـان في الأمم قـبلكم محدثون، فإن يكن في هذه الأمة فعمر بن الخطاب**»[٢].

والمحدث: هو الذي يحدث في سره وقلبه بالشيء، فيكون كما يحدث به.

---

(١) مدارج السالكين.
(٢) خرجه البخاري (٣٦٨٩).



والصديق: أكمل من المحدث، لأنه استغنى بكمال صديقيته، ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف، فإنه قد تسلم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول ﷺ، فاستغنى بها عن التحديث.

٥- مرتبة الإفهام:

قال تعالى: ﴿**وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾ [الأنبياء: ٧٨ - ٧٩]. فالفهم عن الله ورسوله ﷺ عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوت مراتب العلماء، حتى عد ألف بواحد.

٦- مرتبة *البيان العام*:

وهو تبين الحق، وتميزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه، بحيث يصير مشهودا للقلب، كشهود العين للمرئيات، هذه المرتبة هي حجة الله على خلقه، التي لا يعذب أحدا، ولا يضله إلا بعد وصوله إليها، قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ**﴾ [التوبة: ١١٥]. فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم، فلم يقبلوا ما بينه لهم، ولم يعملوا به، فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله - سبحانه - أحدا قط إلا بعد هذا البيان.

وإذا عرفت هذا، عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة، وشبهات في هذا الباب، وعلمت حكمة الله في إضلالة من، يضله من عباده، والقرآن يصرح بهذا في غير موضع، كقوله: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**﴾ [الصف: ٥].

٧- *البيان الخاص*:

وهو المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق

والاجتباء، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب، فلم تتخلف عنه الهداية البتة، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦]. فالبيان الأول شرط، وهذا موجب.

٨- مرتبة الإسماع:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣].

إن الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما، فسماع الألفاظ هو حق الأذن، وسماع حقيقة معناه ومقصودة حظ القلب، فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود، والمراد الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ، الذي هو حظ الأذن في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ② لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:٢-٣].

٩- الإلهام:

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس:٧-٨] والإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم، فكل مؤمن قد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الإيمان.

١٠- الرؤيا الصادقة:

وهي من أجزاء النبوة، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **«الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»**[1].

والرؤيا ثلاثة:

١- رؤيا من الله.

٢- رؤيا من الشيطان.

٣- رؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة، فيراه في النوم.

---

(١) خرجه البخاري (٦٩٨٧).



والذي هو من أسباب الهداية: هو الرؤيا التي من الله خاصة.

وبعد... اعلم أن آيات الله هدىً، ولكنها لا تهدي إلا المتقين كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

❑ ● ❑

❑ ● ❑ مقابلة الناس لهذه الهداية ❑ ● ❑

إن الله - عز وجل - قد استنهض همم الناس، وأوضح لهم المسالك التي يسلكونها؛ لينالوا رضاه، فأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب؛ وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وما أرسل الرسل إلا ليرشدهم ويهديهم، ولم يختص بذلك قومًا دون قوم، ولا غني دون فقير، ولا سيد دون مسود، ولكن المعاصي والآثام تستهوي القلوب، وتجتلب الألباب، ويحمل الرسل على عواتقهم رسالة النصح والإرشاد، وتتأبى[1] قلوب الظالمين عن الحق، ويتأثروا[2] الشيطان في خطواته، ويتركوا قول الرسل، ويتمسكوا بسفاسف الأمور ودناياها.

والنكبة الشعواء، والداهية الدهياء: أن يقترفوا من الآثام والمعاصي أشدها، ويعتبروها من الهنة[3] البسيطة، وإذا تحدثت إليهم ونصحتهم؛ تمرمروا[4] وتجبروا، واتبعوا كل مأفون[5]، وذادوا[6] عن الأهواء والآثام وحفائظ نفوسهم[7] وتسارعوا، واستبقوا[8] على السقوط في هوة الشيطان.

---

(١) تأبى وتشتد في الإباء.

(٢) يتبعوا أثره.

(٣) الذنب الصغير.

(٤) اهتزوا هزة غضب.

(٥) الأحمق، ضعيف الرأي.

(٦) دافعوا.

(٧) أحقادهم.

(٨) تسابقوا.

الاستعداد للرحيل

«إخواني! مرَّ الأقران على مدرجة [(١)]، وخيول الرحيل للباقين مُسرجة[(٢)]، سار القوم والفتور هملجة[(٣)]، وبانت الأرواح من الأجساد وهي مستخرجة، إلى كم هذا التسويف والمجمجة[(٤)]؟ وبضائعكم كلها بهرجة[(٥)]، وطريقكم صعبة عوسجة[(٦)]، بستعرفون الخبر وقت الحشرجة[(٧)]، أين من حصَّن واحترس، وعمَّر الحدائق وغرس، وغصب سرير الكبر وجلس، وظن بقاء النفس فخاب الظن في نفس، ووَجَّهه[(٨)] الموت إلى ديار البلى فانطمس، وتركه في ظلام ظُلْمِه بين العيب والدنس، فالعاقل من بادر بالسلامة فإن السلامة خلس»[(٩)].

وكان بالبصرة عابدٌ قد أجهده الخوف والوله[(١٠)]، وأسقمه البكاء

(١) المَدْرَجَة: ممر الأشياء على الطريق.

(٢) وُضع عليها السرج استعدادًا للرحيل.

(٣) أمرٌ مُهَمْلَجٌ : مُذَلَّلٌ ومُنْقَاد، والهملجة : الذل والانقياد.

(٤) المجمجة: تغيير الكتاب وإفساد ما كُتب فيه من الكتابة.

(٥) فاسدة مزيفة.

(٦) العوسج: نبات ذو شوك.

(٧) وقت صعود الروح.

(٨) جاءه الموت.

(٩) «المواعظ والمجالس» للإمام ابن الجوزي.

(١٠) الخوف والحزن.

وأنحله، فلما حضرته الوفاة، جلس أهله يبكون حوله، فقال لهم: أجلسوني، فأجلسوه، فأقبل عليهم وقال لأبيه: يا أبت! ما الذي أبكاك؟!

قال: يا بني! ذكرت فقدك وانفرادي بعدك.

فالتفت إلى أمه وقال: يا أماه! ما الذي أبكاك؟!

قالت: يا بني! لتجرعي مرارة ثكلك.

فالتفت إلى زوجته وقال: ما الذي أبكاك؟!

قالت: لفقد برك وحاجتي لغيرك.

فالتفت إلى أولاده وقال: ما الذي أبكاكم؟!

قالوا: لذُل اليتم والهوان بعدك.

فعند ذلك نظر إليهم وبكى، فقالوا له: ما يبكيك أنت؟

قال: أبكي لأني رأيت كلاً منكم يبكي لنفسه، لا لي، أمَا فيكم مَنْ بكى لطول سفري؟! أمَا فيكم مَنْ بكى لقلة زادي؟! أما فيكم من بكى لمضجعي في التراب؟! أما فيكم من بكى لما ألقاه من سوء الحساب، أما فيكم من بكى لموقفي بين يدي رب الأرباب؟! ثم سقط على وجهه، فحركوه فإذا هو ميت»[1].

تذكر ... أخي... أن هذه القوة التي أنت بها، وهذه النعمة التي تتنعم بها، ما هي إلا لحظات وتتبدل، فيصبح هذا الجسد القوي جسدًا ضارعًا[2]، وتطوى تلك الصحيفة، إما على الحسنات، وإما على السيئات، وتجد هاتين العينين اللتين طالما نظرت إلى الحرام، وآثرته[3] على ما أحل الله

(١) «المواعظ والمجالس» للإمام ابن الجوزي.

(٢) الضارع: الضعيف النحيل.

(٣) فضلته، واخترته.

لها تجدهما مـخضلتان[١]، تسكبان الدمع على ما مـضى، وتنظر إلى هـذه الدار الفضـفاضة[٢]، وهي تتولى وتزول عنه ، وتتـسقط[٣] جسـده، وهو يحـتسي مـرارة الألم، وغـضاضـة الندم، على كل الأوقـات التي ذهبت، وتتطلع إلى هـذا المرقد الذي سيقطنه[٤]، فإلى مَنْ تبث شُكاتك[٥]، وأنت قادم على ليلةٍ ليلاء، كل شيء فيها مُمِضًا[٦].

كان وسيم البلخي يقول: أوه القبر وظلمته واللحد وضيقه كيف أصنع ثم يغمى عليه.

وكـان سهل بن علي المـروزي يجلس في المسجـد ويقـول: النار النار وترعد فرائصه حتى يبكي من حوله.

وكان السُّري السـقطي يقول: ما أحب أن أموت حيث أُعـرف. فقيل له: ولما ذاك يا أبا الحسن؟ قال: أخاف ألا يقبلني قبري فأفتضح.

وكان ابن المبـارك إذا قرأ كـتب الرقاق تغيـر كأنه ثور منحـور أو بقرة منحورة من البكاء لا يجترئ أحد أن يدنو منه أو يسأله عن شيء إلا دفعه.

وعن محمد بن حاتم قال: قال الفـضيل بن عياض: لو خيرت بين أن أُبعث فأدخل الجنة وبين ألا أُبعث لاخترت ألا أُبعث. قيل لمحمد بن حاتم: هذا من الحياء؟ قال: نعم! هذا من طريق الحياء من الله عز وجل.

---

(١) مبتلتان بالدموع.

(٢) الواسعة.

(٣) تأخذ شيئًا بعد شيء.

(٤) يسكنه.

(٥) تخبر بشكواك.

(٦) الممض : المؤلم.

وشهد الفضيل رحمه الله الموقف الأشرف في عرفات فرفع رأسه إلى السماء وقد قبض على لحيته وهو يبكي بكاء الثكلي ويقول: «وا سوأتاه منك وإن عفوت».

ولما احتضر الأسود بن يزيد بكى فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: ما لي لا أجزع؟! ومن أحق بذلك مني؟! والله لو أُتيت بالمغفرة من الله عز وجل لأهمني الحياء منه مما قد صنعت، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه ولا يزال مستحييًا منه.

قال الحسن: «لو لم نبك إلا للحياء من ذلك المقام لكان ينبغي لنا أن نبكي فنطيل البكاء».

• سكرات الموت[1]:

«ولو لم تكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول، ولا عذاب سوى سكرات الموت، بمجردها لكان جديرًا بأن يتنغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقًا بأن يطول فيه فكره، ويعظم له استعداده لا سيما وهو في كل نفس بصدده، فالموت كما قيل: كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك.

والعجيب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو، فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذاته، وفسد عليه عيشه، وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع، وسكرات النزع كما قيل: أشد من ضرب بالسيف، ونشر بالمناشير، وقرض بالمقاريض؛ لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم؛ لتعلقه بالروح، فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح، وإنما يستغيث المضروب

---

(١) الإحياء للإمام الغزالي.

ويصيح لبقاء قوته في قلبه، وفي لسانه، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه؛ لأن الكرب قد بالغ فيه، وتصاعد على قلبه، وبلغ كُلَّ موضع منه، فهد كل قوة ، وضَعَّف كل جارحة، فلم يترك له قوة الاستغاثة، ولو كان المجذوب عرقًا واحدًا لكان ألمه عظيمًا، فكيف والمجذوب نفس الروح، لا من عرق واحد بل من جميع العروق، ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجيًا ، فتبرد قدماه، ثم ساقاه، ثم فخذاه، ولكل عضو سكرة بعد سكرة، وكربة بعد كربة، حتى يبلغ بها إلى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها، ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة.

لذا؛ لما حضرت مروان بن عبد الملك الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق يغسل ثوبه بيده، ثم يضرب به المغسلة. فقال عبد الملك: ليتني كنت غسالاً، آكل من كسب يدي يومًا بيوم، ولم أل من أمر الدنيا شيئًا، فبلغ ذلك أبا حازم، فقال: الحمد لله الذي جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه، وإذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه.

وقيل لعبد الملك في مرضه الذي مات فيه : كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: أجدني كما قال الله تعالى : ﴿**وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ...**﴾ [الأنعام: ٩٤].

وحكي عن هارون الرشيد أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت، وكان ينظر إليها ويقول: ﴿**مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ**﴾ [الحاقة: ٢٨ ، ٢٩].

وروي أن المأمون افترش رمادًا واضجع عليه، وقال: يا من لا يزول ملكه، ارحم من زال ملكه.

وقال الحجاج عند موته: اللهم! اغفر لي؛ فإن الناس يقولون: إنك لا تغفر لي.

ولما حضرت بلالاً الوفاة قـالت امرأته: وا حزناه، قال: بل وا طرباه، غدًا نلقى الأحبة، محمدًا وحزبه.

وقيل: فتح عبد الله بن المبارك عينيه عند الوفاة، وضحك، وقال: لمثل هذا فليعمل العاملون»اهـ.

قال بعض الصالحين:

كنا في مجلس بعض الوعاظ، فوعظ حتى أبكى من حضروا وكان في المجلس شاب، فـذكر الواعظ النار، وما أعـده الله تعالى فيهـا من العذاب الأليم لمن عصـاه، فصاح الشاب: وا أسفي على مـا فرَّطْتُ في جنب الله! ضيعت عـمري، ونسيت أجلي، وقصـرت في عملي، ثم استقـبل القبلة، وقـال: اللهم! إني استـقبـلتك في يومي هذا بتـوبة لك، لا يخالطهـا رياء لغيـرك، فاقـبلني على ما كـان مني، وأقِل عثرتي، وارحم غـربتي، إلهي! إليك رجعت بجميع جوارحي، صـادقًا من قلبي، فالويل لي إن لم تقبلني، ثم سقط مغشيًا عليه فحركناه فإذا هو ميت، رحمة الله تعالى عليه.

هذا عبد استيقظ فعلم تقصيره، واستبصر فشاهد بعين البصيرة مصيره، فاستولى عليه وارد الخوف فصدع قلبه، فرضي الله عنه وأرضاه ﴿**ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**﴾[1] [البينة: ٨].

• رؤية ملك الموت:

وما أشـدها من لحظات، حين يجد المـرض قد ألم به، ويتيـقن أنه لا يبل[2] منه أبدًا، ولم يعُد له إلا صُبابة[3] من الأنفاس، ويئن أنات لا يسمعها

(١) «المواعظ والمجالس» للإمام ابن الجوزي.

(٢) أبلَّ من مرضه: برئ منه.

(٣) الصُبابة: البقية من الشيء.

غيره، ويعلم أنه لم يبق له إلا هنيهة[١]، ثم يمضي في هذا السفر البعيد، وينتظر هذا الزائر الأخير الذي يأتي بغتة، ويلتاع[٢] في حذر وخوف، وينتظر الخاتمة.

فلا يروم[٣] مكانه حتى يرى ما لم يره أحد، ويسمع ما لم يسمعه أحد، يرى هؤلاء الملائكة، إما أن يأتوه سود الوجوه، وإما أن يأتوه بيض الوجوه.

فإن كانوا ملائكة العذاب؛ فإنه يحتسي مرارة الألم، ويتجرع أكواب الندب، ويستغيث حيث لا مغيث، ويتألم، حيث لا ينقطع الألم، ويحاول الفرار، ولكن هيهات هيهات... يحاول التوبة، ولكن هيهات هيهات... يحاول النطق بالشهادة، ولكن هيهات هيهات... فيضربونه ضربًا شديدًا، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ**﴾ [الأنعام: ٩٣].

أي: لو تراهم[٤] وهم في غمرات وسكرات الموت، والملائكة باسطوا أيديهم إليهم بالضرب والتعذيب، يقولون لهم تعنيفًا: أخرجوا أنفسكم إلينا لنقبضها اليوم تجزون عذاب الهون - أي: الهوان - بما كنت تتكبرون عن الإيمان بآيات الله.

---

(١) الوقت القليل.

(٢) التاع فؤاده: احترق من الشوق أو الهم.

(٣) رام مكانه: أي: زال عنه وفارقه.

(٤) أي: لو تراهم يا محمد، فالخطاب في الآية للنبي ﷺ.

فنعوذ بالله من أن نرى هؤلاء الملائكة الذين هم سود الوجوه، حيث يأتون ويجلسون منه مد البصر، ويراهم، ويعلم أنه لا مفر، وأنه مُعذب لا محالة، وأن الأيام قد انقضت، وأن الآمال قد انطوت، وأن الرحلة قد ابتدأت، ويأتي ملك الموت في صورة لو كانت هي العذاب لكفت، ولو أن العاصي لم يلق عذابًا إلا هذه اللحظات لكفت، ولكن هذا غيض من فيض.

فيقول ملك الموت: اخرجي أيتها الروح الخبيثة، إلى سخط من الله وغضب، فهذه هي البشارة التي يأتي بها ملك الموت، إما أن يقول: اخرجي أيتها الروح الطيبة، إلى رب راضٍ عنك، وإما أن يقول: اخرجي أيتها الروح الخبيثة إلى سخط من الله وغضب.

والآن تظهر الأعمال على حقيقتها، ويريد أن يُزاد في عمره ساعة يسجدها لربه، فلا يجاب، وينظر إلى الأولاد، والزوجة، والأهل والأحباب ولسان حاله يقول: يا ليتني أرد فأعمل صالحًا، يا ليتني لم أقترف إثمًا، ليت أمي لم تلدني، يا ليتني كنت ترابًا، كيف وقوفي بين يدي خالقي، كيف جوابي عن صلواتي، وما حيلتي أمام كتابي، وقد ضيعت أيام شبابي، واأسفاه... وا ضياعاه... وا حسرتاه... فمن الآن يسأل ما بي؟ ومن يفديني من أحبابي؟ ومن يجيرني من عذابي؟

وتهرب الروح في الجسد، وتتأبى، ولا تريد الخروج، ولكن هيهات هيهات، فتنتزع كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، أي: كالشوك في الصوف المبلل، فتتقطع معها العروق، ويا ليت في القلب قوة ليبكي، ويا ليت في العين دمعة لتبكي، وتخرج من الجسد مكرهة، فيجعلونها في تلك المسوح التي معهم، فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه

الأرض وكيف لا وما بها إلا المعاصي، والخوف من العبيد، والعصيان أمام الجبار، فلم أيها الإنسان جعلت الله أهون الناظرين إليك، أغرك حلمه؟ أم ظننت أنه لن يقدر عليك؟! أما علمت أنه الجبار، أما علمت أنه يملي للظالمين ليزدادوا إثمًا، .أما علمت أنه قوي، أكنت غافلاً عن هذا اليوم، ألم يخبرك ربك أن عذابه هو العذاب الأليم.

فيا ليت شعري... وقد سُلبت الروح من الجسد، ولا تدري ما يُفعل بها ولا تعلم هول عذابها.

روي أن حذيفة بن اليمان ﷺ عند احتضاره قال لابن مسعود ﷺ: قم فانظر أي ساعة هي؟ فقام ابن مسعود ثم جاء فقال: قد طلعت الحمراء، يعني: الشمس، فقال حذيفة: أعوذ بالله من صباح إلى النار.

وروي: أن أبا هريرة ﷺ بكى عند موته ثم قال: والله ما أبكي حزنًا على الدنيا ولا جزعًا من فراقكم، ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي، بجنة أم بنار.

«قال إبراهيم التيمي: كنت كثير التردد إلى المقابر أذكر الموتى وطول البلى، فبينما أنا ذات ليلة فيها إذ غلبتني عيني فنمت، فرأيت قبرًا قد شق، وسمعت قائلاً يقول: خذوا هذه السلسلة فاسلكوها في فيه، وأخرجوها من دبره، وإذا الميت يقول: يا رب! ألم أكن أقرأ القرآن؟ ألم أكن أحج بيتك الحرام؟! وجعل يذكر أفعال البر شيئًا بعد شيء، وإذا قائل يقول: نعم كنت تفعل ذلك ظاهرًا، فإذا خلوت بارزت الله بالمعاصي ولم تراقبه»[1].

ويدخل في قبره، ثم إنه لينظر إلى وحدته، وانفراده في حفرته، فينادي ولده، وأخاه، وأباه، حتى لا يدع أحدًا من أهله إلا ناداه، فلا يجيبه

(١) «المواعظ والمجالس» للإمام ابن الجوزي.

منهم أحد، فيأمر الله - عز وجل - قبره أن يجيبه. فيقول له القبر: ما الذي تريد؟ يا من حيل بينه وبين ما يريد؟

فيقول الميت: من أنت أيها المتكلم فقد أحزن كلامك قلبي؟

فيقول: أنا قبرك، وبيت عملك الذي نسيتني، ولو كنت عَمَّرْتَني كنت اليوم لقيتني ووجدتني، ثم إن القبر يضمه ضمة تختلف فيها أضلاعه.



الفهرست